الفصل الرابع

دعاء إبراهيم

إن دعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ أوسع وأكثر من دعاء من سبقه من الأنبياء وممن جاء بعده سوى موسى ونبينا محمد عليهما الصلاة والسلام . ودعاؤه يكشف عن شفافية نفسه ورقة قلبه وخشيته من ربه وقربه إليه . فقد آثر دعاء ربه وتضرعه إليه على صحبة والده وقومه . قال تعالى : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم : ٤٨] .

ويمكننا تقسيم دعائه إلى الأقسام السبعة التالية :

١ـ استغفاره لأبيه : فقد وعد أباه بالاستغفار حين نهاه عن عبادة الأصنام واتباع الشيطان ، مع أن أباه قابله بالإعراض ، وهدد برجمه وطرده . قال تعالى : ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[1] [مريم : ٤٧] .

ولم يكن ينساه من الاستغفار كلما توجه إلى الله بالدعاء : ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء : ٨٦] .

ولكن ذلك كان وهو يطمع في إيمانه ، فلما انقطع رجاؤه ، وتحقق أن أباه عدو لله ، تبرأ منه ، وقطع استغفاره . قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ

---

(١) حفيّاً: لطيفاً .

إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[1] [التوبة : ١١٤] .

٢ـ دعا ربه أن يرزقه غلاماً صالحاً ، فاستجيب له : ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات : ١٠٠ـ١٠١] .

٣ـ دعا ربه أن يهبه الحكمة ، ويلحقه بالصالحين ، وأن يجعل له ذِكراً جميلاً من بعده ، وأن يجنبه الخزي يوم القيامة ، ويدخله الجنة :

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2] [الشعراء : ٨٢ـ٨٩] .

فأتاه الله الحكمة والهداية :

﴿ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٥١] .

وجعل أهل كل دين يتولونه ويثنون عليه :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم : ٥٠] .

وجعله صالحاً في الدنيا والآخرة :

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

بل جعله إماماً في الهداية والعبادة :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً

---

(١) وعده إياها : أي وعده أبوه أن يسلم ، أو هو وعد أباه أن يستغفر له ، الأواه : كثير التأوه لرقته وخشيته وفرط ترحمه . والحليم : الصبور على البلاء الصفوح عن الأذى .

(٢) حكماً : حكمة أو حكماً بين الناس بالحق ، أو نبوة . الصالحين : أي الأنبياء . الآخرين : الباقين فيها . بقلب سليم : خال من الكفر والنفاق .

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[1] [الأنبياء : ٧٢ـ٧٣] .

وجعله سليم القلب قوي الإيمان حسن الطوية : ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2] [الصافات : ٨٣ـ٨٤] .

٤ـ ودعا للبيت الحرام وأهله بالأمن والرزق ، ولذريته بالإسلام والهداية ، وأن يبعث فيهم أنبياء :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3] [البقرة : ١٢٤ـ١٢٩] .

---

(١) نافلة : أي زيادة وفضلاً من غير سؤال . سأل ولداً فأُعطى إسحق ، وأعطي يعقوب بن إسحق نافلة .

(٢) من شيعته : من حزبه وأنصاره . والضمير لنوح عليه السلام .

(٣) بكلمات : اختبره بأوامر ونواه ومحن وتكاليف . فأتمهن : قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية . ومن ذريتي : أي واجعل من ذريتي إماماً يقتدى به ، وذرية الرجل : أولاده . لا ينال عهدي الظالمين : أي لاتصيب الإمامة أهل الظلم من ولدك . مسلمين : مخلصين : زدنا إخلاصاً وإذعاناً لك . مناسكنا : جمع منسك ، وهي معالم الحج وشعائره ، وقيل مواضع الذبح ، وقيل جميع المتعبدات ، والنسك في الشرع اسم العبادة . الكتاب والحكمة : القرآن والسنة أو الفهم في الدين . ويزكيهم : يطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس .

فاستجاب الله دعاءه ، فجعل الأمن والسلم حول البيت ، بينما كان الغزو والخوف في أنحاء جزيرة العرب :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] .

وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه في الحرم فلا يعرض له .

وجعل من ذريته أنبياء وأنزل عليهم الكتب :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦] .

بل جعل الرسل متتابعين في ذريته حتى عيسى عليه السلام :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾[1] [المؤمنون : ٤٤] .

فلما بُعِثَ عيسى بشَّر برسول الله ﷺ . وقد سأل أبو أمامة رسول الله ﷺ : يارسول الله ﷺ! ما كان أول أمرك ؟ فقال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى بي ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام »[2] .

٥ـ وكانت العقيدة والعبادة أهم ما يدعو به ، وكان دعاؤه مصحوباً بحمد الله على نعمه وتفضله بالقبول :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ

---

(١) تترا : أي متابعين واحداً بعد واحد . والأصل وترى ، من الوتر وهو الفرد .

(٢) قيل : كان ذلك مناماً رأته حين حملت به ، وقصته على قومها ، وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه فيها . والحديث أخرجه أحمد .

لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[1] .

[إبراهيم : ٣٥ـ٤١] .

وفي هذا الدعاء تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ، فقد دعا ربه أن يجنبه عبادة الأصنام التي افتتن بها كثير من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله . ولم يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ، ولم يستعجل لهم العذاب ، وإنما تركهم إلى غفران الله ورحمته ، وقد حدد الهدف من السكنى بجوار البيت الحرام بإقامة الصلاة ، ودعا بالرزق لأهل البيت لا ليأكلوا ويتمتعوا فحسب ، ولكن ليشكروا الله ويحمدوه . وكان لسانه يلهج بالحمد لله الذي وهبه إسماعيل وإسحق ، ويسأل الله العون على إقامة الصلاة ، كما يسأله أن يعين ذريته على إقامتها . وختم دعاءه بطلب المغفرة له وللمؤمنين أجمعين[2] .

٦ـ وكان يلتجىء إلى الله ويحتمي بحماه إذا أصابه كرب أو وقع في ضيق . فحين ألقي في النار فوض أمره إليه فقال : « حسبي الله ونعم الوكيل »[3] .

٧ـ وهناك دعاؤه بأن يريه الله كيف يحي الموتى :

---

(١) واجنبني: وبعدني ، أي ثبتني وأدمني على اجتناب عبادتها . تهوي إليهم: تسرع إليهم من البلاد الشاسعة ، وتطير نحوهم شوقاً . ولوالدي: كان إبراهيم النخعي يقرأ :« ولولديّ : يعني ابنيه وكذلك قرأ يحيى بن يعمر(الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٧٥) ويقوي هذه القراءة أن الآيات السابقة تضمنت ذكر ولديه وذريته . وعلى هذا فليس في الآية دعاء لوالديه . والذين قرؤوا ولوالديَّ ، قالوا : كان استغفاره لهما قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله ، أو أن ذلك الاستغفار يرجع إلى آدم وحواء عليهما السلام » .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٣١٠٩ـ٣١١٠ .

(٣) أخرجه البخاري عن ابن عباس

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] [البقرة : ٢٦٠] .

ولقد استجاب الله له ، فأمره بأن يختار أربعة طيور ، فيقربها منه ويضمها إليه ، ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها ، ثم يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويخلط أجزاءها ، ويفرقها على الجبال المحيطة به ، ثم يدعوها . وإذ بالأجزاء المبعثرة تتجمع ، وتعود الطيور إليه ساعيات[2] .

وبذلك تتجلى مكانة إبراهيم عليه السلام وأهمية ما كان يدعو به ، ويتضح أن دعاء الله والإلتجاء إليه خير من الاعتماد على القوم والعشيرة والأهل ، وأن من يتضرع إلى الله بالدعاء لايكون من الأشقياء .

* * *

(١) فصرهن : اضممهن .

(٢) اقتبسنا هذا الفصل من كتابنا : « أولو العزم من الرّسل » ص : ٩٤ ، ٩٩ ، ١٣٠ ـ ١٣٥ .